الأخلاق النبوية في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

حافظ زاهد علي *

تمثلت في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمى مكارم الأخلاق، وتجمعت فيه كل الصفات الحميدة، فتعلق الناس به، وتركوا في حبه كل ما كان يربطهم بحياة الجاهلية الأولى، ولذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن على نبي من أنبيائه، فقال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (١)

الأخلاق لغة و اصطلاحًا:

الأخلاق جمع خلق، والخُلُق -بضمّ اللام وسكونها- هو الدِّين والطبع والسجية والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها.(٢)وقال الرَّاغب:"والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد، لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلْق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة".(٣)

عرَّف الجرجاني الخلق بأنَّه: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا".(٤)وعرفه ابن مسكويه بقوله: "الخلق: حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا، حتى يصير ملكة وخلقًا".(٥)

وقد عرف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه".(٦)

نبذة عن حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وحسان بن ثابت أول شاعر اهتم ببيان أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي أوجد صنعة المديح النبوي في الشعر العربي. فلذلك لقب بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد كان إمام الشعراء الإسلاميين.

ولد حسان بن ثابت في المدينة قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو ثماني سنين، فعاش في

* الأستاذ المساعد،الكلية الحكومية، شاهدره، لاهور ، باكستان.

الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة أخرى، وشب في بيت وجاهة وشرف، منصرفًا إلى اللهو والغزل. وهو من بني النجار أخوال عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قبيلة الخزرج. أبوه ثابت بن المنذر الخزرجي كان من سادة قومه، ومن أشرافهم، وأما أمه فهي الفزيعة بنت خنيس بن لوزان بن عبدون وهي أيضا خزرجية. كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد الشعر قبل الإسلام، وكان ممن يفدون على ملوك الغساسنة في الشام، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. كانت يثرب، المدينة التي نشأ فيها حسان، إحدى مدن الحجاز المهمة إلى الشمال من مكة والطائف.(٧)

يعد حسان بن ثابت رضي الله عنه في مقدمة الشخصيات التي استحوذت على تفكير العديد من الباحثين وخاصة ممن يقومون بدراسة النقد الأدبي.

حسان بن ثابت له مكانته في الجاهلية، وزادت هذه المكانة في الإسلام، كيف لا؟ وهو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم. والذي لاشك فيه أن دخول حسان بن ثابت الإسلام زاد في مفرداته اللغوية وفى معانيه، فإذا كانت اللغة تعطى المتكلم إمكانات لغوية، وقدرات تعبيرية خلابة تمكنه من الرقى في التعبير إلى أقصى درجات الذوق التعبيري ، و"المتكلم هو الذي يشكل اللغة بشكل أو بآخر، ويكتشفها أثناء نطقه واستماعه لها؛ لأنها تمثل نظاماً ما من قواعد التوليد" (٨)

تحالف كل من المشركين واليهود ضد الإسلام، والأسباب التي جعلت هذه الطوائف تناهض الإسلام لم تكن دينية، ولم يكن هؤلاء يولون اهتماما بدينهم قبل الإسلام، وإنما مراكزهم في المجتمع القبلي ومصالحهم الشخصية هي التي حركتهم لمحاربة الإسلام والمسلمين. لذا، لا يمكن اعتبار الشعر الذي قيل في مناهضة المسلمين شعرا دينيا، فهو لا يخرج عن كونه شعر نقائض أو هجاء سياسيا.

وللرد على هؤلاء المعارضين، انتدب الرسول الكريم ثلاثة من خيرة شعراء المسلمين للدفاع عن الرسالة المحمدية، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، فمنهم من حارب المشركين بالسيف والقلم معا، ومنهم من استشهد في المعركة. لكن شعر هؤلاء لم يتوقف عند الدفاع عن الرسول ورسالته، وإنما نظموا قصائد يمدحون فيها النبي صلى الله عليه وسلم ويشيدون بفضائل الإسلام. ومن هنا نستطيع القول أن الشعر الديني عند العرب بدأ مع المدائح النبوية.

قال حسان مادحًا الرسول ومبرزا الظروف التي جاء فيها الإسلام ومشيرًا إلى الفترة السابقة عليه، تلك الفترة التي فشت فيها عبادة الأوثان والأصنام، وذاكرًا بعض المبادئ التي دعا إليها الإسلام من جزاء وثواب:

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأسٍ وَفَتْرَةٍ مِنَ الرسلِ، والأوثانِ في الأرضِ تعبدُ
فَأمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنيراً وَهَادِياً يَلُوحُ كما لاحَ الصّقِيلُ المهَنَّدُ
وأنذرنا ناراً، وبشرَ جنةً وعلمنا الإسلامَ، فاللهَ نحمدُ(٩)

وقال يرثي النبي صلى الله عليه وسلم:

نبِّ المساكينَ أنّ الخيرَ فارقهمْ ... مَعَ النبيّ تولى عنهمُ سحرا
من ذا الذي عندهُ رحلي، وراحلتي ... وَرِزقُ أهْلي، إذا لمْ يُؤنِسوا المطَرَا
أمْ مَنْ نُعاتبُ لا نخشَى جَنادِعَهُ ... إذا اللّسانُ عَتا في القولِ، أوْ عَثَرَا
كانَ الضياءُ، وكان النورَ نتبعهُ ... بَعْدَ الإلهِ، وكان السّمْعَ والبَصَرَ
فَلَيْتَنا يوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ ... وغيبوهُ، وألقوا فوقهُ المدرا
لمْ يَتْرُكِ اللّهُ مِنّا بَعْدَهُ أحَداً ... ولمْ يُعِشْ بعدَهُ أُنثى، ولا ذَكَرَا
ذَلّتْ رِقَابُ بَني النَّجّارِ كلّهِمُ ... وكان أمراً منَ امرِ اللهِ قد قدرا(١٠)

وقال:

واللهِ ربي لا نفارقُ ماجداً ... عَفَّ الخَلِيقَةِ، ماجِدَ الأجدادِ
متكرماً يدعو إلى ربّ العلى ... بذلَ النصيحةِ رافعَ الأعمادِ
مِثلَ الهِلالِ مُبارَكاً، ذا رَحمةٍ ... سَمْحَ الخَليقةِ، طَيّبَ الأعْوَادِ(١١)

العفة الكف عما لايحل وعن كل ما لا يجمل وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عفيف بخلقته لا يتعمل لذلك. ويجود بالنصيحة عن طيبة خاطره وهو الناصح الأمين.

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم:

وبيان أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من الموضوعات المهمة والمعتدة في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه. فإنه يلقي الضوء في هذا الموضوع بأسلوبه الخاص وفصاحته الرقراقة. ونذكر هنا منها ما يأتي:

الصبر: الصَّبْرُ نقيض الجَزَع، صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا فهو صابِرٌ وصَبَّار وصَبِيرٌ وصَبُور والأُنثى صَبُور أَيضًا بغير هاء وجمعه صُبُرٌ.وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبَرَه، والصبر: حبس النفس عن الجزع.(١٢)

وقال الجرجاني :"هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله".(١٣) وقيل الصبر: "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه".(١٤) وقريب منه تعريف ابن القيم الصبر بأنه: ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية. (١٥)

يعدُّ الصبر من السمات المحمودة، وقد وصف الله عباده المؤمنين بالصبر في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وقد جعل الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد مدح الله أنبياءه بصفة الصبر لكونه من دلالات الثقة بالله والتوكُّل عليه والتسليم لإرادته وحكمه. وقد تحلّى نبيُّنا الكريم صلى الله عليه وآله بأقصى درجات الصبر وكان يصبر على أذى قومه ويدعو لهم بالهداية وقد أُثر عنه قوله "ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". فكان يقابل أذاهم بالصبر والاحتساب عند الله وهم يتمادون في أذاه فيضربونه بالحجارة ويرمونه بفضلات الدواب وقد لقي منهم ما لم يلق رسول ولا نبيٌّ قبله من قومه حتى قال قولته المشهورة ((ما أُوذي نبيٌّ بمثل ما أوذيت)) وكان يواجه ذلك الأذى كله بالإيمان والصبر والتوكُّل على الله. وقد مدحه حسان بالصبر عند الشدائد والابتلاءات موظِّفا

الحادثة التاريخية لبيان صبره وثقته بالله وقيادته الحكيمة إذ اجتمع عليه الكفار والمشركون في غزوة الخندق وهم ينوون قتله والقضاء التام على الإسلام وقد دبَّ الرعبُ في صفوف المسلمين وأخذ الشكُّ مأخذه منهم (وبلغت القلوب الحناجر) ويئسوا من النصر ومن تحقيق وعد الله بإعلاء كلمة الإسلام بينما كان الرسول مطمئن القلب ثابت الجنان مترقبا لتحقق وعد الله بالنصر فأقرَّ الله عينه وفضح المرتابين والمشككين في يوم كتب فيه النصر لمحمد وأصحابه وأخزى الله فيه الكافرين فولّوا مدبرين على أعقابهم ينكصون. يقول حسان:

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل النبي ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيديهم ردوا بغيظهم على الأعقاب
من بعد ما قنطوا ففرج عنهم تنزيل نص مليكنا الوهاب
وأقر عين محمد وصحابه وأذل كل مكذب مرتاب(١٦)

وأثرُ القرآن بيّنٌ في هذه الأبيات، يتمثَّلُ ذلك في اقتباس نصوص منه، يحيل فيها الى غزوة الخندق حين اجتمع الأحزاب لقتال الرسول والمسلمين والقضاء عليهم وقد تحشَّدوا على النبي وأصحابه من كل جانب إذ أقبلت قريش ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة في عشرة آلاف وأقبلت غطفان ومن تابعهم من بني أسد ومن تحشَّد معهم من اليهود من بني قريظة والنضير وحينئذ ابتلي المؤمنون واضطربوا اضطرابا شديدا وقد عدلت الأبصار عن سننها وشخصت القلوب من مكانها خوفا وحيرة وجزعا حتى كثرت الظنون ويئس نفر ممَّن ضعف إيمانه وأرعد بدنه من تحقُّق وعد الله بالنصر وشرع نفر من أهل الريبة والنفاق بالفرار بعد أن كانوا قد بايعوا النبي وأقسموا أنهم ينصرونه ولا يرجعون عن قتال عدوه!!(١٧)

الوفاء: الوفاءُ ضد الغَدْر، يقال: وَفَى بعهده وأَوْفَى. بمعنى، ووفى بعهده يفي وفاءً، وأوفى: إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه.(١٨)

الوفاء هو: "ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء"(١٩) وقيل: "هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانه، والخروج مما يضمنه، وإن كان مجحفًا به"(٢٠)

وقد جاء في اللسان: الوفاء ضد الغدر ورجل وفي وميفاء أي ذو وفاء، ويقال أوفيت بالعهد ووفيت به، وأوفاني حقَّه إذا أتمَّه ولم ينقص منه شيئا(٢١).

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في بيان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم:

هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله شيمته الوفاء(٢٢)

الشيمة هي الخلق والطبيعة، وتشيّم أباه أي أشبهه في شيمته(٢٣)، والوفاء هو الخلق العالي وهو قيمة إنسانية عليا، وقد مدح الله تعالى نبيه الكريم بأنه قد تخلَّق بخلق القرآن وتأدَّب بأدبه في قوله (وإنك لعلى خلق عظيم)(٢٤) وقد جعله الله من البرِّ والتقوى والإيمان في قوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)(٢٥) وهو سمة متأصلة عند العربي وكثيرا ما تغنّى بها الشعراء كما ضربت بها الأمثال فقيل (أوفى من السموأل)(٢٦)، وهو سمة متصلة

برجولة الإنسان العربي وكرامته وإنسانيَّته لكون الغدر صفة منبوذة يأباها الذوق العربي وتنفر منها الطباع الكريمة والفطرة السليمة. والمبارك هو الرجل الميمون اللين الجانب(٢٧)، وهي صفة غالبة على أنبياء الله وقد تغنّى القرآن الكريم في مدح أنبياء الله بأنهم مباركون أودع الله فيهم الخير كلَّ الخير وأخلصهم لنفسه واصطفاهم من بين خلقه وجعلهم رحمة للعالمين. وقد بنى الجملة بناءً اسميا في قوله (شيمته الوفاء) لتأكيد المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي.

وفي البيت تعريض بأبي سفيان بأنه لا يملك شيئا من الوفاء، وقد عزَّز هذا المعنى بتعرية أبي سفيان في البيت السابق(٢٨) من أن يكون ندا لرسول الله في قوله (ولست له بكفء): باستعمال النفي ب (ليس) وهو أقوى من النفي ب (ما) ومجيء الباء الزائدة لتوكيد النفي وتقديم معمول خبر (ليس) الجار والمجرور (له) على الخبر للعناية والاهتمام فأين أنت منه حتى تقابل به؟! وأين الثرى من الثريا؟! وهذا قياس مع الفارق فالرسول لا يتشبَّهُ به أحد وليس له نظير بين البشر ولا يدانيه في شمائله وصفاته ومنزلته وعلو قدره لا نبيٌّ منتجب ولا ملك مقرَّب.

العبودية: العبودية هي الخضوع والانقياد والتذلل، وقد جاء في لسان العرب: العبد هو الإنسان حرا كان أو رقيقا لكونه مربوبا لخالقه، والتعبُّد التنسُّك، والعابد الموحِّد، وعبد الله يعبده عبادة أي تألَّه له(٢٩). قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في بيان عبودية النبي صلى الله عليه وسلم:

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء (٣٠)

ولم يقل حسان (رسولا) وإنما قال (عبدا) لكون العبودية مقدمة على النبوة وهي لازمة من لوازمها لأن النبوة تعني التبليغ عن الله، والمبلغ لا بد أن يكون في أعلى درجات الانضباط أو الالتزام بتعاليم السماء وهذا هو التسليم المطلق للإرادة الإلهية، وقد جاء قوله (عبدا) نكرة للدلالة على التفرُّد في الصفة لكونه، بما يملكه من استعدادات للسمو والاقتراب من الله عزوجل، أهلا للعبوديَّة الحقَّة، وهي تعني أن يصل الإنسان الى منتهى كمالات النفس الإنسانية، وقد أعقبه بقوله (يقول الحق) في إشارة إلى قوله تعالى (إن هو إلا وحي يوحى)(٣١) وقد فتح الزمن على مصارعه باستعمال الصيغة المضارعة للدلالة على عصمته لأن قيادة الأمة الإسلامية تقتضي أن لا يحيد القائد عن الحق طرفة عين، وقد حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه للدلالة على التلبس بين المقصود بالخطاب، وهو الرسول الكريم، وبين الحق وأصل الكلام (يقول قول الحق)، وقد وقع قوله (يقول الحق) صفة لقوله (عبدا) ومن خلال التلازم بين الصفة والموصوف يتضح لنا أن العبودية والعصمة ركنان أساسيان لقيادة الأمة وإرساء قوانين العدالة الإلهية في الأرض.

الشجاعة: الشجاعة: شدَّة القلب عند البأس، وأصل هذه المادة يدل على جرأة وإقدام. يقال: شجُع شجاعة: اشتد عند البأس.(٣٢)

قيل هي: "الإقدام على المكاره، والمهالك، عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت".(٣٣)

وقال ابن حزم: "حد الشَّجَاعَة: بذل النفس للموت، عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن

المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلمًا في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق، سواء قلَّ من يعارض أو كثر".(٣٤)

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

مستشعري حلق الماذي يقدمهم جلد النحيزة ماض غير رعديد
ماض على الهول ركاب لما قطعوا إذا الكماة تحاموا في الصناديد(٣٥)

يعد هذان البيتان من أروع ما مدح به رسول الله صلى الله عليه وآله لما تضمَّناه من سمات جليلة ووصف دقيق للشخصية القيادية التي يتحلّى بها الرسول، وقد أجاد حسان الوصف وبرع في المدح وتفرَّد بدقة التصوير وتفنَّن في اختيار عناصر الصورة. لقد مدح الشاعر رسول الله في هذين البيتين بالشجاعة والجرأة والإقدام عند اصطكاك الأسنة واشتباك السيوف إذا ما حمي الوطيس وكشَّرت الحربُ عن أنيابها. وتعدُّ الشجاعة من أجلِّ الفضائل التي يسمو بها الإنسان الى أعلى قمم المجد، وقد جعلها أرسطو من الفضائل النفسية التي لها ما للسعادة من الأثر النفسي(٣٦)، وهي من السمات التي شكّلت إنَّ محمدا صلى الله عليه وآله قد توزع بين شجاعتين شجاعة ورثها عن آبائه وأجداده وقد كانوا من صناديد العرب ورجالاتها من ذوي النجدة والبأس والإقدام وأخرى اكتسبها من تفانيه في الله وشوقه إلى لقائه وقيادته لجمع من المؤمنين ممَّن يتبارون للقاء الله ويتلذذون باقتحام ميادين القتال للفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وكما مدحهم القرآن في قوله (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين)(٣٧) وكيف يكون محمد بن عبد الله حاشاه جبانا رعديدا وقد تحدّر من سلالة نجيبة تورث أبناءها السيف وترى الجبن أو النكوص في ساحات الوغى سبة وعارا؟

قال الشيخ البيهقي: ولم نجد شجاعا قطُّ إلاّ وقد فرَّ في مناوشة أو مواجهة، وكانت له صلى الله عليه وآله وقائع مثل أحد وحنين ولم يكن أحد يدَّعي أنه هاب حربا أو خاف(٣٨). وليس ذلك فحسب بل مدحه كذلك بثبات العزم وقوَّة الإرادة وحسن القيادة والتدبير، فهو الموسوم بالقيادة الحكيمة وسداد الرأي والدراية بأمور الحرب والقتال، وهو الذي يركب كلَّ مركب صعب إذا عجز القوم عن ركوبه، فهو يركب الأمر العظيم إذا تحيَّر أصحابه عنده ولم يلتمسوا له طريقا للنجاة وقد نكصت الرجال ولاذ الشجعان بحماتهم وقادتهم وأشرافهم، وهو الذي علا ظهر الحرب وامتطى إليها كل عزم وحزم، وقد جاء في اللغة: كلُّ من علا شيئا فقد ركبه(٣٩) فهو العقل المدبِّر فيها وهو المتصدي لشؤونها والعالم بأسرارها وخفاياها وكان قد خبرها وفقه مراسها وذاق طعم لهواتها.

لقد جاء في اللسان: أمضى الأمر إذا أنفذه، ومضى السيف مضاء أي قطع(٤٠) والجلد هو القوي الشديد، والنحيزة هي الطبيعة (ونحيزة الرجل طبيعته) أو المسناة في الأرض (أو الأرض الصلبة) (٤١)، ويجوز أن يكون كنّى بها على المعنى الثاني عن الإرادة الصلبة أو جاء بها من طريق الاستعارة على المعنى الأول وأراد بها قوَّةُ القلب والإرادةُ الصلبة وهما من أهم سمات القيادة، وهي استعارة محسوس، وهو البنية القوية، لأمر عقلي، وهو قوَّةُ القلب، ولذلك أعقبها بقوله (ماض) بما يحتمل من معنيين: الأول السيف القاطع ليجمع له الأمرين قوَّة

القلب وقوَّة الساعد وهما سمتان لا غنى عنهما في قيادة الجيش، الثاني هو الذي أنفذ أمره لأن صاحب الإرادة القوية يمضي في تحقيق ما يصبو إليه وإنفاذ ما عزم عليه وخطَّط له دون أن يقف في وجهه شيء أو يثني عزمه خطب أو موقف مهول.

وقد جاء الفصل بين الجملتين (ماضٍ الى الهولِ) و (ركّابٌ لما قطعوا) لتحقيق كما الاتصال بينهما لكون الثانية جاءت مؤكدة لما قبلها لتحقيق المعنى الذي دلّت عليه الأولى بلفظ جديد لترسيخه في الذهن(٤٢) لأن من سمات الشخص الثابت الجنان الماضي في تنفيذ ما عزم عليه مهما كانت الظروف والأحوال أن يكون مقتحما للصعاب مستعدا لركوب الأهوال غير مكترث بما يعترض طريقه أو بما يؤول إليه أمره فقد عوّد نفسه أن تستبسل وأسقط من قاموسه الخوف أو التهيُّب أو النكوص، كيف لا؟ وقد وطَّن للموت نفسه وابتاع آخرته بدنياه فسهل عنده العسير وهان لديه كلُّ صعب شديد. وقد جاء استعمال صيغة (فعّال) في قوله (ركّاب) التي تفيد معنى المبالغة في الدلالة على الحدث(٤٣)، ولعلَّه أراد بقوله (قطعوا) الطريق الذي وقفوا عنده وحادوا عن الولوج فيه أو الأمر الشديد الذي عجزوا عن تذليله وإمضائه، أي لقد تركوا الأمر وتفرَّقوا عنه وتردَّدوا في ركوب الأهوال وتهيَّبوها بينما هو ماض لتحقيق ما عزم عليه يركب الأهوال التي وقف عندها الرجال الأشداء بعد أن ثُنيتْ عزائمهم وأرعدت فرائصهم، والصناديدُ هم قادة الجيش الأشداء من أشراف القوم وشجعانهم، أي لقد مضى يركب الأهوال ويقتحم لجج الوغى إذا ما تهيَّب الفارس الشجاع فلجأ الى قائده ولاذ به لهول القتال ولشدة ما لاقاه من بأس الرجال ومضاء السيوف.

الفعل الحسن:

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد(٤٤)

جاء في اللغة: رجلٌ أغرُّ كريم الأفعال واضحها(٤٥)، إذ كان النبي صلى الله عليه وآله مشهورا بخصاله المحمودة وحسن فعاله، وقد تغنّى الشعراء بجميل أفعاله وحسن سيرته. وقيل المقصود بالخاتم شامة سوداء محتفرة باللحم وهي خاتم نبوته، وذهب شارح الديوان عبد الرحمن البرقوقي الى أنه يجوز أن يكون المقصود بالخاتم أنه قد طبع بطابع النبوة وهو إشراق وجهه واستبشاره وجميع خصاله وأفعاله(٤٦)، وأكبر الظن أنه أراد بالخاتم العلامة وأكبر علامات نبوَّته معجزتُه، وهي القرآن الكريم، ولذلك قال (من الله) أي هو كلام الله المنزل على نبيِّه، ثم وصفه بقوله)مشهود(ولعلَّ في ذلك إحالة الى قوله تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهودا)(٤٧) قال الزمخشري: إن معنى قوله (مشهودا) يشهده ملائكة الليل والنهار(٤٨). وقد جاء بقوله (خاتم) نكرة للدلالة على التعظيم(٤٩)، وأيُّ شيء أعظم شأنا من القرآن الكريم الذي أنزله الله هدى ورحمة للناس وليبيّن لهم دينهم ويهديهم الى سواء السبيل.

قوة الشخصية وحسن القيادة:

وتعتبر القيادة هي أساس نجاح الجماعة ووصولها إلى الهدف المنشود، أو فشلها في تحقيق هدفها، بل

يتعدى الأمر على تماسك الجماعة أو انفلاشها وانقسامها وتفسخها، فهي محور دراسة علماء النفس وعلماء الاجتماع من حيث شخصيته، وخصائصها وأثره على الجماعة.

القود: نقيض السوق، فهو من أمام، وذاك من خلف، كالقيادة، والمقادة والقيدودة والتقواد والاقتياد والتقويد، والخيل، أو التي تقاد بمقاودها ولا تركب، ورجل قائد من قود وقواد وقادة، وأقاده خيلاً: أعطاه ليقودها.(٥٠)

أما القيادة في لسان العرب قال هذه الخيل قود فلانٌ القائد، وجمع قائد الخيل قادة وقواد، وهو قائد بين القيادة، والقائد واحد القواد والقادة، ورجل قائد قومٍ قودٍ وقوادٍ وقادةٍ، وأقاده خيلاً: أعطاه إياه يقودها وأقدتك خيلاً تقودها، وفي حديث السقيفة: فانطلق أبو بكر وعمر يتقاودان حتى أتوهم، يذهبان مسرعين، كأن كل واحدٍ منهما يقود الآخر لسرعته.(٥١)قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

مستعصمين بحبل غير منجذم مستحكم من حبال الله ممدود(٥٢)

الحبل في اللغة: الرباط، والحبل العهد والذمة، وحبل الله عهده وأمانه الذي يؤمن من العذاب، وقيل ترك الفرقة واتّباع القرآن(٥٣). والاستعصام هو التمسك بالشيء والامتناع به، وقد جاء في اللسان: العصمة في كلام العرب المنع وعصمه يعصمه عصما منعه ووقاه وأصل العصمة الحبل وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه والاعتصام الامتساك بالشيء وأعصمه أي هيَّأ له طريقا يعتصم به وأعصم بالفرس امتسك بعرفه وبالبعير إذا امتسك بحبل من حباله(٥٤).

وقد عرف الرسول صلى الله عليه وآله بحكمته الواسعة ودرايته في الأمور وحسن سياسته في تسيير أمور الدولة الإسلامية وقيادة الأمة وتنظيم شؤون الرعية وأحوالهم، وقد جاء بصيغة (مستفعل) لإفادة معنى الاتخاذ، أي لقد اتخذ الحكمة مطية لتسيير شؤون الدولة ورعاية مصالح العباد.

العظمة والسؤدد

لقد اصطفى الله نبيَّه من بين سائر خلقه واختصه بالرسالة وجعله خاتم المرسلين وأمينا على وحيه وهاديا لعباده وقد ميَّزه بسمات فاق بها جميع البشر وبلغ بها المقامات الرفيعة والدرجات العالية وقد اشتق له اسما من اسمه وغشيه بلطفه وعنايته وألبسه لباس السؤدد وسوّره بسوار الهيبة والعظمة، قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد(٥٥)

والحمدُ في اللغة نقيض الذم وهو الثناء وأحمد الرجل إذا فعل ما يحمد عليه وأحمدته وجدته محمودا والمحمَّدُ الذي كثرت خصاله المحمودة. وقد جاء بلام التعليل في قوله (ليجلّه) لبيان أن تسميته بهذا الاسم مقصود بها الإجلال والتعظيم، وقد جاء في اللسان: جلَّ الشيء يجلُّ جلالا وجلالة أي عَظُمَ وأجللته إذا عظَّمتُه وجلالُ الله عظمته(٥٦)، أي لقد كان ذلك منه سبحانه وتعالى إجلالا لنبيه وتعظيما لمكانته وقدره.

لقد ركَّزت الدراسة على أبرز الأخلاق الحسنة لرسول صلى الله عليه وآله في شعر حسان بن ثابت،

تلك السمات التي أهَّلته أن يكون جديرا بالاصطفاءِ والتعظيم من قبل الله تعالى وبلوغ الدرجة التي فاق بها جميع الأنبياء والمرسلين بل الخلق كلهم أجمعين ليكون أشرفهم وأكثرهم مودَّة وأشدهم إخلاصا وعبوديَّة لله سبحانه وأقربهم إليه منزلة وفضلا. منها شجاعته إذ توزع نبيُّنا الكريم بين شجاعتين شجاعة ورثها عن آبائه وأجداده الذين كانوا من صناديد العرب ورجالاتها من ذوي النجدة والبأس والإقدام وأخرى اكتسبها من تفانيه في الله وشوقه الى لقائه وقيادته للمسلمين في لجج الحرب وميادين القتال، وفضلا عن ذلك فقد وصفه بالصبر وهو من السمات المحمودة التي مدح الله بها أنبياءه لكونه من دلالات الثقة بالله والتوكل عليه والتسليم لإرادته وحكمه وقد تحلَّى الرسول بأقصى درجات الصبر وكان يقابل أذى قومه بالصبر والاحتساب عند الله، ووصفه بالوفاء وهو سمة متصلة برجولة الإنسان العربي وكرامته وإنسانيته لكون الغدر صفة منبوذة يأباها الذوق العربي وتنفر منها الطباع الكريمة والفطرة السليمة، وكذلك وصفه باليمن والبركة ولين الجانب وهي صفات غالبة على أنبياء الله فقد تغنى القرآن الكريم في مدحهم بأنهم مباركون أودع الله فيهم الخير وأخلصهم لنفسه واصطفاهم من بين خلقه وجعلهم رحمة للعالمين.

ومن أبرز تلك السمات: عبوديّته الحقّة لله عز وجل وهي مقدَّمة على النبوة لكونها لازمة من لوازمها لأن النبوة تعني التبليغ عن الله، والمبلغ لا بد أن يكون في أعلى درجات الالتزام بتعاليم السماء وهذا هو التسليم المطلق للإرادة الإلهية.

الهوامش

(١) سورة القلم، الآية ٤

(٢) فيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب(٨١٧هـ) :القاموس المحيط،ص٨٨١. القاهرة: المطبعة الميمنية، سنة ١٣١٩هـ. والأفريقي، ابن منظور(٧١١هـ): لسان العرب، ج١٠ص٨٦. بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٣م.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(٥٠٢هـ): مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص ٢٩٧. مكة المكرمة: مكتبة نزار المصطفى الباز.

(٤) الجرجاني،محمد السيد الشريف(٨١٦هـ) : التعريفات ص ١٠١. بتحقيق محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة، سنة ٢٠٠٤م.

(٥) ابن مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب(١٠٣٠هـ): تهذيب الأخلاق، ص ٤١. بتحقيق عماد الهلالي، ألمانيا: منشورات الجمل. ط/١، ٢٠١١م.

(٦) مقداد يالجن، الدكتور: التربية الأخلاقية الإسلامية، ص ٧٥. مصر: مكتبة الخانجي. ط/١، سنة ١٣٩٧هـ.

(٧) راجع: الأستاذ عبد أ. مهنا: ديوان حسان بن ثابت، ص:٧-١٠ بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الرابعة

(٢٠٠٥م – ١٤٢٥هـ) والبرقوقي، عبد الرحمن: شرح ديوان حسان بن ثابت، ص١١-١٦ بيروت: دار الكتاب العربي. ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

(٨) كريم زكي، حسام الدين الدكتور: أصول تراثية في علم اللغة، ص٦٨، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية. ط/١، ١٩٨٥م.

(٩) ديوان حسان، ص٨٥

(١٠) ديوان حسان، ص١٣٥

(١١) ديوان حسان، ص ٨٧

(١٢) الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ص ٧٠٦، والأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، ج٤ص٤٣٧.

(١٣) الجرجاني،محمد السيد الشريف: التعريفات، ص ١٣١.

(١٤) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن الكريم،، ص٤٧٤.

(١٥) ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة ص ٢٤١. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

(١٦) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص٦٩-٧٠

(١٧) مروج الذهب، ج ٣ ص٢٩ ومجمع البيان ج٨ ص ٤٣٩

(١٨) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن الكريم،ص ٨٧٨، والأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، ج١٥ ص٣٩٨.

(١٩) الجرجاني،محمد السيد الشريف(٨١٦هـ) : التعريفات،ص ٢٥٣. و المناوي، زين الدين محمد الحدادي: التوقيف على مهمات التعاريف. ص ٣٣٩.

(٢٠) الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر: تهذيب الأخلاق، ص ٢٤.

(٢١) الأفريقي: لسان العرب، مادة وفى

(٢٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص٦٥

(٢٣) معجم مقاييس اللغة، مادة شيم، ج٣ ص ٢٣٦

(٢٤) سورة القلم، الآية٤

(٢٥) سورة البقرة، الآية ١٧٧

(٢٦) مجمع الأمثال، ج٢ ص ٣٨٨

(٢٧) لسان العرب، مادة برك

(٢٨) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص١٣٥

(٢٩) الأفريقي: لسان العرب، مادة عبد

(٣٠) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص٦٣

(٣١) سورة النجم، الآية ٤

(٣٢) الأفريقي، ابن منظور(٧١١هـ): لسان العرب، ج٨ ص١٧٣. الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة

وصحاح العربية، بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج٣ ص١٢٣٥، بيروت: دار العلم للملايين. ط/٤، سنة ١٩٩٠م. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج٣ ص٢٤٧، عمان: دارالفكر، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر: مختار الصحاح، ص ٣٥٤.

(٣٣) الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر: تهذيب الأخلاق، ص ٢٧. القاهرة: دار الصحابة للتراث. ط/١، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(٣٤) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيدبْنِ حَزْمٍ،أبومحمد،الأَنْدَلُسِيّ(٣٨٤-٤٥٦هـ): الأخلاق والسير، ص ٨٠، القاهرة: دار المشرق العربي، ط/١، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٣٥) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص١٣٧

(٣٦) محمد صقر خفاجة: النقد الأدبي عند اليونان، مكتبة الأنجلو المصرية. ص ٢٣٤

(٣٧) سورة التوبة الآية ٥٢

(٣٨) البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ، مصر: دار المعارف، ١٩٩١م. ص٢٢-٢٣

(٣٩) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، مادة ركب

(٤٠) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، مادة مضى

(٤١) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، مادة نحز

(٤٢) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان للنشر والتوزيع. ص٤٢٠

(٤٣) صلاح مهدي الفرطوسي: الهمذب في علم التصريف، بيروت، ٢٠١١م. ص ٢٦٢

(٤٤) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ١٣٥

(٤٥) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، مادة غرر

(٤٦) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ١٣٥

(٤٧) سورة الإسراء، الآية ٧٨

(٤٨) الزمخشري: الكشاف، ج٢ ص ٦٦

(٤٩) القزويني، جلال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت: دارالجيل. ص ٥٠

(٥٠) فيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب:القاموس المحيط، ج١ ص٣٩٩

(٥١) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، ج٣ ص٣٧٠

(٥٢) شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ١٣٧

(٥٣) الأفريقي، ابن منظور: لسان العرب، مادة حبل

(٥٤) نفسه، مادة عصم

(٥٥) نفسه، ص١٣٧

(٥٦) لسان العرب، مادة جلل

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆

اللهم صل على سيدنا محمد وسلم